بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ١٨ -

حِبُّ رَسُوْلِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم

# زَيْدُ بنُ حَارِثَة

رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

● قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِزَيْدِ بنِ حَارِثَةَ:

**«يَا زَيْدُ أَنْتَ مَوْلَايَ، وَمِنِّي، وَإِلَيَّ، وَأَحَبُّ القَوْمِ إِلَيَّ».**

● قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ أُخْبِرَ بِمَا تَمَّ بِمُؤْتَةَ:

**«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِزَيْدٍ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِزَيْدٍ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِزَيْدٍ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِجَعْفَرٍ وَلِعَبْدِاللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ».**

● قَالَتْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

**«مَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ فِي جَيْشٍ إِلَّا أَمَّرَهُ عَلَيْهِمْ، وَلَوْ بَقِيَ بَعْدَهُ اسْتَخْلَفَهُ».**

● قَالَ ابنُ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

«فَرَضَ عُمَرُ لأُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ أَكْثَرَ مِمَّا فَرَضَهُ إِلَيَّ، فَكَلَّمْتُهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنْكَ، وَإِنَّ أَبَاهُ كَـانَ أَحَبَّ إلى رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أَبِيكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ العَـالَمِينَ والصَّـلاَةُ والسَّـلاَمُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِاللَّهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِـهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَبَعْدُ:

فَإِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ لَمْ يُسَمِّ صَحَابِيّاً بِاسْمِـهِ إِلَّا زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿فلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَاً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهُ مَفْعُولاً﴾[1].

لَقَدْ كَانَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَيْدَانَ الدِّرَاسَةِ العَمَلِيَّ لإِلْغَاءِ بَعْضِ الأَعْرَافِ الَّتِي كانَ مَعْمُولاً بِهَا فِي الجَاهِلِيَّـةِ، وَتَـطْبِيقِ النُّظُمِ الصَّحِيحَـةِ الَّتِي أَمَـرَ بِهَـا الإِسْـلامُ لِتَنْـظِيمِ الأُسْـرَةِ، والمُسَاوَاةِ، وَحِفْظِ الإِرْثِ فِي ذَوِي الأَرْحَـامِ، وَإِبْطَالِ عَادَةِ التَّبَنِّي.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

كَانَتِ الجَاهِلِيَّةُ إِذَا أَحَبَّ الإِنْسَانُ مَوْلَىً لَهُ تَبَنَّاهُ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ، أَوْ إِذَا كَانَ مُجِيراً لَهُ وَرَغِبَ فِيْهِ تَبَنَّاهُ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَهْلِهِ. وَلَقَدْ أَحَبَّ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللَّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ والسَّلَامِ مَوْلَاهُ زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ فَتَبَنَّاهُ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ، وَأَصْبَحَ يُعْرَفُ بِزَيْدِ بنِ مُحَمَّدٍ. وَرَغِبَ الأَسْوَدُ بنُ عَبْدِيَغُوث فِي المِقْدَادِ بنِ عَمْرٍو الَّذِي أَجَارَهُ فَنَسَبَهُ إِلَيْهِ فَكَانَ يُقَالُ لَهُ المِقْدَادُ بنُ الأَسْوَدِ، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ حَتَّى نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّلائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ، وَاللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ، وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ. آدْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[1]. فَأُلْغِيَتْ بِهَذَا ظَاهِرَةُ التَّبَنِّي، وَكَانَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَاحَتَهَا وَذَلِكَ تَمْهِيداً لِزَوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ ابْنَةِ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، الَّتِي كَانَتْ زَوْجَ زَيْدٍ مِنْ قَبْلُ.

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ٤، ٥.

وَمَعَ إِلْغَاءِ ظَاهِرَةِ التَّبَنِّي الَّتي كَانَتْ مَعْرُوفَةً في الجَاهِلِيَّةِ أُلْغِيَ التَّوارُثُ بَيْنَ السَّيِّدِ وَمَوْلاَهُ، وَأَصْبَحَ الإِرْثُ مَحْصُوراً فِي ذَوِي الأَرْحَامِ كَتَنْظِيمٍ جَدِيدٍ فِي المُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِيِّ.

وَفِي الجَاهِلِيَّةِ كَانَ العَبْدُ لاَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنْ سَيِّدَةٍ شَرِيفَةٍ حَيْثُ كَانَتِ الطَّبَقَاتُ قَائِمَةً وَمُتَعَارَفاً عَلَيْهَا، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ وَدَعَا إِلَى المُسَاوَاةِ وَتَرْكِ مَا كَانَ مُتَعَارَفاً عَلَيْهِ مِنْ نِظَامِ الطَّبَقَاتِ، زَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابْنَةَ عَمَّتِهِ السَّيِّدَةَ الشَّرِيفَةَ الجَمِيلَةَ المُتَبَاهِيَةَ بِجَمَالِهَا، المُعْتَزَّةَ بِنَسَبِهَا، المُفْتَخِرَةَ بِوَضْعِهَا من مَوْلاَهُ زَيْدٍ. وَقَدْ وَجَدَتْ فِي نَفْسِهَا شَيْئاً مِنْ هَذَا الزَّوَاجِ، كَمَا وَجَدَ أَهْلُهَا كَذَلِكَ حَتَّى غَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَقْبَلْ أَبْنَاءُ عَمَّتِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، عَلَى غَضَبِهِ فَوافَقُوا عَلَى الزَّوَاجِ وَوَافَقَتْ صَاحِبَةُ الشَّأْنِ زَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَتَمَّ الزَّوَاجُ. وَكَانَ قَدْ نَزَلَ قُرْآنٌ بِذَلِكَ بِأَنْ لاَ يَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ خِيَرَةٌ فِي أَمْرٍ قَطَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً﴾(١). فَكَانَ

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

دَرْسَاً فِي المُسَاوَةِ، دَرْسَاً عَمَلِيَّاً، سَاحَتُهُ زَيْدٌ وَزَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما.

كَانَتِ الجَاهِلِيَّةُ لَا تُجِيزُ أَبَدَاً أَنْ يَتَزَوَّجَ المُتَبَنِّي زَوْجَةَ المُتَبَنَّى إِذَا طَلَّقَهَا أَبَداً، وَكَيْفَ يَتَزَوَّجُها وَهُوَ ابْنُهُ؟. فَجَاءَ الإِسْلَامُ لِيُقَرِّرَ أَنَّ المُتَبَنَّى لَيْسَ ابْنَ المُتَبَنِّي أَبَدَاً، وَيَحِقُّ لَهُ الزَّوَاجِ مِنْ مُطَلَّقَتِهِ وَكَانَ زَيْدٌ وَزَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، مَيْدانَ هذا أيضاً. فَقَدْ تَزَوَّجَ زيدٌ زَيْنَب، وَلَم يُوَفَّقْ هَذَا الزَّوَاجُ، فَلَمْ يَسْتَمِرَّ فَطَلَّقَ زَيْدٌ زَيْنَبَ، وَبَعْدَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهَا تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَمْرٍ مِنَ السَّمَاءِ كَيْ تُلْغَى أَعْرَافُ الجَاهِلِيَّةِ، وَتَسْتَقِرَّ فِي المُجْتَمَعِ النُّظُمُ الصَّحِيحَةُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ[1] وَأَنَعَمْتَ عَلَيْهِ[2] أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي في نَفْسِكَ ما اللَّهُ مُبْدِيْهِ[3] وَتَخْشَى النَّاسَ واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْها وَطَرَاً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى المُؤمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَاً، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً. مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ

(١) أنعم الله عليه بالإسلام.

(٢) أنعم عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالعتق.

(٣) كان يُخفي رسول، صلى الله عليه وسلم، ما أطلعه الله عليه بما سيتمّ.

لَهُ، سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً. الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدَاً إِلَّا اللَّهَ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً. مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمَاً﴾[1].

زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ بنِ شَرَاحِيلَ مِنْ قَبِيلَةِ كَلْبٍ الَّتِي كَانَتْ تُقِيمُ فِي شَمَالِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَهِيَ مِنْ قُضَاعَةَ مِنْ قَحْطَانَ. وَأَمَّا أُمُّهُ فَهِيَ سُعْدَى بِنْتُ ثَعْلَبَةَ مِنْ بَنِي مَعْنٍ مِنْ طَيِّءٍ التي مَنَازِلُهَا فِي مَنْطِقَةِ حَائِلٍ.

وُلِدَ زَيْدٌ حَوَالِي عَامِ ٤٣ قَبْلَ هِجْرَةِ المُصْطَفَى عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، وفي العَاشِرَةِ مِنْ عُمْرِهِ ذَهَبَ مَعَ أُمِّهِ لِزِيَارَةِ أَهْلِهَا، وَفِي دِيَارِ أَخْوَالِهِ خَرَجَ يَلْعَبُ فَمَرَّتْ بِهِ خَيْلٌ لِبَنِي القَيْنِ بنِ جَسْرٍ فِي غَارَةٍ لَهَا فَاحْتَمَلَتْهُ مَعَهَا، وَأَتَتْ بِهِ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَعَرَضَتْهُ لِلْبَيْعِ فَاشْتَرَاهُ حَكِيمُ بنُ حِزَامِ بنِ خُوَيْلِدٍ بِأَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ لِعَمَّتِهِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ.

وَوَصَلَ الخَبَرُ إِلَى حَارِثَةَ وَالِدِ زَيْدٍ، خَبَرُ اخْتِطَافِ ابنِهِ فَجَزِعَ أَشَدَّ الجَزَعِ وَرَثَاهُ فَقَالَ:

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات ٣٧ ـ ٤٠.

بَكَيْتُ عَلَى زَيْـدٍ وَلَمْ أَدْرِ مَا فَعَـلْ
أَحَيٌّ فَيُـرْجَى أَمْ أَتَى دُونَـهُ الأَجَـلْ
فَـوَاللَّهِ مَا أَدْرِي وإِنْ كُنْتُ سَـائِـلاً
أَغَالَكَ سَهْلُ الأَرْضِ أَمْ غالَكَ الجَبَلْ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لَكَ الدَّهْرَ رَجْعَةٌ
فَحَسْبِي مِنْ الدُّنْيَا رُجُوعُكَ لِي بَجَلْ
تُـذَكِّـرْنِيـهِ الشَّمْسُ عِنْـدَ طُلُوعِهَـا
وَتَعْـرِضُ ذِكْرَاهُ إِذَا قَـارَبَ الـطَّفَـلْ
وَإِنْ هَـبَّتِ الأَرْوَاحُ هَـيَّجْـنَ ذِكْـرَهُ
فَيَـا طُولَ حُـزْنِي عَلَيْـهِ وَيَـا وَجَـلْ
سَأُعْمِلُ نَصَّ العِيس فِي الأَرْضِ جَاهِدَاً
وَلاَ أَسْـأَمُ التَّطْوَافَ أَوْ تَسْـأَمَ الإِبِلْ
حَيَـاتِيَ أَوْ تَـأْتِـي عَلَيَّ مَنِـيَّـتـي
وَكُـلُّ امْرِىءٍ فَـانٍ وَإِنْ غَرَّهُ الأَمَـلْ
وَأُوصِي بِــهِ قَيْسَـاً وَعَمْـرَاً كِلَيْهِمَـا
وَأُوصِي يَزِيدَاً[١] ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِمْ جَبَلْ[٢]

---

(١) يزيد بن كعب بن شراحيل: هو ابن أخي حارثة، وأخو ابنه زيد لأمه.

(٢) جبل: هو جبلة بن حارثة، وأخو زيد.

وَحجَّ نَاسٌ مِنْ قَبِيلةِ كَلْبٍ فَرَأَوْا زَيْداً فَعَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ، فَقَالَ: بَلِّغُوا أَهْلِي هَذِهِ الأَبْيَاتَ، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُمْ قَدْ جَزِعُوا عَلَيَّ، وَقَالَ:

أَلِكْني إِلَى قَوْمِي وَإِنْ كُنْتُ نَائِياً
بِأَنِّي قَطِينُ البَيْتِ عِنْدَ المَشَاعِرِ
فَكُفُّوا مِنْ الوَجْدِ الَّذِي قَدْ شَجَاكُمُ
وَلَا تَعْمَلُوا في الأَرْضِ نَصَّ الأَبَاعِرِ
فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ فِي خَيْرِ أُسْرَةٍ
كِرَامٍ مَعَدٍّ كَابِراً بَعْدَ كَابِرِ

وَعِنْدَمَا رَجَعَ الكَلْبِيُّونَ أَعْلَمُوا أَبَاهُ، فَقَالَ: ابْنِي وَرَبِّ الكَعْبَةِ! وَوَصَفُوا لَهُ مَوْضِعَهُ، وَعِنْدَ مَنْ هُوَ. فَخَرَجَ حَارِثَةُ أَبُوهُ، وَكَعْبٌ عَمُّهُ بِفِدَائِهِ.

بَقِيَ زَيْدٌ عِنْدَ خَدِيجَةَ، فَلَمَّا تَزَوَّجَ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللَّهِ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بِخَدِيجَةَ، وَهَبَتْهُ لَهُ، فَكَانَ بِجَانِبِهِ يُسَاعِدُهُ، وَيَخْدُمُهُ، وَقَدْ أَحَبَّهُ حُبّاً جَمّاً، وَسُرَّ بالحياةِ مَعَهُ، فَقَد رَأَى فِيْهِ الإِنْسَانِيَّةَ وَالحَنَانَ، وَعَرَفَ فِيْهِ الأُخُوَّةَ وَالعَطْفَ، وَشَعَرَ مِنْهُ بِالأُبُوَّةِ الَّتِي افْتَقَدَهَا وَالشَّفَقَةِ الَّتِي أَضَاعَهَا بِسَبَبِ قَسْوَةِ الجَاهِلِيَّةِ، وَظُلْمِ تِلْكَ المُجْتَمَعَاتِ الَّتِي كَانَتْ قَائِمَةً.

وَقَدِمَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ إِلَى مَكَّةَ يَبْحَثَانِ عَنْهُ، وَسَأَلَا عَنِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقِيلَ لَهُمَا: هُوَ في المَسْجِدِ، فَدَخَلا عَلَيْهِ، فَقَالاَ: يَا ابنَ عَبْدِاللَّهِ، يَـا ابْنَ عَبْدِالمُـطَّلِبِ، يَا ابنَ هَاشِمٍ، يا ابنَ سَيِّدِ قَوْمِهِ، أَنْتُمْ أَهْلُ الحَرَمِ وَجِيرَانُهُ وَعِنْدَ بَيْتِهِ تَفُكُّونَ العَانِيَ وَتُطْعِمُونَ الأَسِيرَ، جِئْنَاكَ فِي ابْنِنَا عِنْدَكَ، فَامْنُنْ عَلَيْنَا وَأَحْسِنْ إِلَيْنَـا فِي فِدَائِـهِ، فَإِنَّـا سَنَرْفَـعُ لَكَ فِي الفِدَاءِ.

قَالَ: «مَنْ هُوَ؟».

قَالُوا: زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ.

فَقَـالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ: «فَهَلْ لِغَيْـرِ ذَلِكَ؟».

قَالُوا: مَا هُوَ؟.

قَالَ: «دَعُوهُ فَخَيِّرُوهُ فَإِنِ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمَا بِغَيْرِ فِدَاءٍ، وَإِنِ اخْتَارَنِي فَوَاللَّهِ مَـا أَنا بـالَّذِي أَخْتَـارُ عَلَى مَنِ اخْتَارَنِي أَحَدًا».

قَالُوا: قَدْ زِدْتَنَا عَلَى النَّصَفِ وَأَحْسَنْتَ.

فَدعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ لَهُ: «هَلْ تَعْرِفُ هَؤُلَاءِ؟».

قَالَ زَيْدٌ: نَعَمْ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ هُمَا؟».

قَالَ زَيْدٌ: هَذَا أَبِي ـ وَأَشَارَ إِلَيْهِ ـ وَهَذَا عَمِّي ـ وَأَشَارَ إِلَيْهِ ـ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ وَرَأَيْتَ صُحْبَتِي لَكَ فَاخْتَرني أَو اخْتَرْهُمَا».

قَالَ زَيْدٌ: مَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَيْكَ أَحَداً، أَنْتَ مِنِّي بِمَكَانِ الأَبِ وَالأُمِّ.

فَقَالا: وَيْحَكَ يَا زَيْدُ، أَتَخْتَارُ العُبُودِيَّةَ عَلَى الحُرِيَّةِ وَعَلَى أَبِيكَ وَعَمِّكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ.

قَالَ زَيْدٌ: نَعَمْ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ شَيْئاً مَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَيْهِ أَحَدَاً أَبَدَاً.

فَلَمَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَلِكَ أَخْرَجَهُ إِلَى الحِجْرِ، فَقَالَ:

«يَا مَنْ حَضَرَ، آشْهَدُوا أَنَّ زَيْداً ابْنِي أَرِثُهُ وَيَرِثُنِي».

فَلَمَّا رَأَى أَبُوهُ وَعَمُّهُ ذَلِكَ طَابَتْ أَنْفُسُهُمَا وانْصَرَفَا، وَدُعِيَ زَيْدُ بنُ مُحَمَّدٍ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فَأَصْبَحَ بَعْدَهَا يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ.

وَتَزَوَّجَ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللَّهِ، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلامُ، خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ، وَأَصْبَحَتْ دَارُهُمَا تَضُمّ بِالإِضَافَةِ إِلَيْهِمَا زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ الَّذِي قَدَّمَتْهُ خَدِيجَةُ لِمُحَمَّدٍ لِيَخْدِمَهُ، وَهِنْدَ ابْنَةَ خَدِيجَةَ مِنْ زَوْجِهَا الأَوَّلِ، وَبَرَكَةَ تِلْكَ الفَتَاةُ الحَبَشِيَّةُ الَّتِي وَرِثَها مُحَمَّدٌ، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، مِنْ أَبِيهِ...

كَانَ، عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ، بَرّاً رَحِيماً بِأَهْلِهِ وَبِمَنْ يُقِيمُ مَعَهُ، بَلْ وَبِأَهْلِ الأَرْضِ، فَقَالَ لِبَرَكَةَ: «هَا قَدْ أَصْبَحْتُ رَجُلاً وَتَزَوَّجْتُ، وَتَعِبْتِ فِيَّ، وَالآنَ يَجِبُ أَنْ تَتَزَوَّجِي»، واخْتَارَ لَهَا عُبَيْدَ بنَ زَيْدٍ الخَزْرَجِيَّ، فَوَافَقَتْ بَعْدَ تَمَنُّعٍ لِمَا تَجِدْ مِنْ صُعُوبَةٍ فِي تَرْكِهِ، وَآنْتَقَلَتْ إِلَى يَثْرِبَ لِزَوْجِهَا، وَلَمْ يَسْتَدِرِ العَامُ حَتَّى تُوُفِّيَ عُبَيْدُ، فَاضْطَرَّتْ إِلى العَوْدَةِ إِلَى مَكَّةَ، إِلَى دَارِ سَيِّدِهَا مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِاللَّهَ، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وَكَانَ البَيْتُ قَدْ ضَمَّ أَيْضاً عَليَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ.

وَبُعِثَ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللَّهِ، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وَحَدَّثَ أَهْلَ بَيْتِهِ بِدَعْوَتِهِ فَأَسْلَمَ زَيْدٌ، وَأَسْلَمَ أَهْلُ الدَّارِ جَمِيعَاً لِمَا يَعْرِفُونَ مِنْ صِدْقِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ بَيْنَ النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَلِمَا يَعْرِفُونَ مِنْ سُلُوكِهِ وَأَخْلاَقِهِ وَمُعَامَلَتِهِ وَبِرِّهِ وَمَحَبَّتِهِ. وَبَدَأَ أَتْبَاعُهُ يَزْدَادُونَ يَوْمَاً بَعْدَ يَوْمٍ، وَبَدَؤُوا يَلْتَقُونَ سِرَّاً فِي دَارِ الأَرْقَمِ بنِ أَبي الأَرْقَمِ المَخْزُوميِّ عِنْدَ الصَّفا، وَيَجْتَمِعُ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُوَجِّهُهُمْ، وَيُعَلِّمُهُمْ القُرْآنَ، وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ مَا يُوْحَى إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ.

وَتَفَقَّدَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَهْلَ بَيْتِهِ، فَوَجَدَ أَنَّ بَرَكَةَ بِحَاجَةٍ إِلى زَوَاجٍ غَيْرَ أَنَّ سِنَّهَا، وَعَدَمَ نَضَارَتِها، لا يُشَجِّعَانِ أَحداً عَلَى طَلَبِهَا، فَعَرَضَهَا عَلَى أَصْحَابِهِ في دَارِ الأَرْقَمِ، فَقَالَ: «مَنْ يَتَزَوَّجُ بَرَكَةَ وَلَهُ الجَنَّةُ». فَتَقَدَّمَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَاغِبَاً بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِمَا عَرَضَ، وَمُضَحِّيَاً بِشَبَابِهِ، وَهِيَ أَكْبَرُ مِنْهُ، وَسَوادِهَا مَعَ بَيَاضِهِ، وَزَواجُها مِنْ قَبْلُ، وَهُوَ لَمْ يَعْرِفِ النِّسَاءَ، وَوَلَدِهَا أَيْمَنُ، وَهُوَ لَمْ يُنْجِبْ. وَتَزَوَّجَ زَيْدٌ مِنْ بَرَكَةَ، وَكانَ زَوَاجَاً مَيْمُوناً، وَقَدْ أَنْجَبَ مِنْهَا أُسَامَةَ، وَبِهِ يُكَنَّى، أَمَّا هِيَ فَتُكَنَّى بِأُمِّ أَيْمَنٍ.

وَاشْتَدَّ أَذَى المُشْرِكِينَ لِلْمُسْلِمِينَ فَاضْطَرَّ المُسْلِمُونَ إِلَى الهِجْرَةِ مِنْ دِيَارِهِمْ فِرَاراً بِدِينِهِمْ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ مَرَّتَيْنِ، وَبَقِيَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِجَانِبِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. . . وَعَادَ المُهَاجِرُونَ مِنْ مَهْجَرِهِمْ بَعْدَمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِمُ الأَخْبَارُ بِإِسْلَامِ أَهْلِ مَكَّةَ، فَلَمَّا رَجَعُوا لَمْ يَجِدُوا شَيْئاً صَحِيحاً مِمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْبَاءٍ، وَاضْطُرَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ فِي جِوَارِ رَجُلٍ صَاحِبِ مَكَانَةٍ بَيْنَ قَوْمِهِ.

وَعَادَ المُشْرِكُونَ إِلَى طُغْيَانِهِمْ أَوْ مَا انْقَطَعُوا عَنْهُ، وَظَلُّوا عَلَى بَاطِلِهِمْ الَّذِي يَدْعُونَ لَهُ، وَحَرَصَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَجِدَ لأَصْحَابِهِ دَارَ أَمَانٍ يُقِيمُونَ فِيها وَيُؤَدُّونَ عِبَادَتَهُمْ، وَيَدْعُونَ لِدِينِهِمْ، وَفَشِلَ فِي الطَّائِفِ، وَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى القَبَائِلِ فِي المَوْسِمِ فَلَمْ يَجِدْ سِوَى الصُّدودِ، إِذْ كَانَ المُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُحَذِّرُونَ كُلَّ قَادِمٍ إِلَى مَكَّةَ، وَيَفْتَرُونَ الكَذِبَ عَلَى صَاحِبِ الدَّعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُقْبِلَ عَلَى الدَّعْوَةِ بَعْضُ أَهْلِ يَثْرِبَ، وَالْتَقى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في مَوْسِمَيْنِ بِهِمْ، وَأَخَذَ مِنْهُمُ البَيْعَةَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ،

والنُّصْرَةِ لَهُ إنْ قَدِمَ عَلَيْهِمْ. وَلَّمَا استَوْثَقَ لأَصْحَابِهِ أَشَارَ عَلَيْهِمْ بالهِجْرَةِ إلَى يَثْرِبَ، فَبَدَؤُوا يَنْتَقِلُونَ إلَيْهَا أَفْرَاداً وَجَمَاعَاتٍ، وَهَاجَرَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِأَهْلِهِ مَعَ مَنْ هَاجَرَ، وَنَزَلَ عَلَى كُلْثُومِ بنِ الهَدْمِ أَوْ سَعْدِ بنِ خَيْثَمَةَ ـ في رِوَايَتَيْنِ ـ.

وَهَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوَصَلَ إِلىٰ المَدِينَةِ المُنَوَّرةِ، وَآخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ، فَآخى بَيْنَ زَيْدٍ وَبَيْنَ حَمْزَةَ بنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكِلاهُمَا مُهَاجِرٌ حَيْثُ كَانَتِ المُؤَاخَاةُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ جَمِيعاً لِشَدِّ صَفِّهِمْ وَتَقْوِيَةِ وَحْدَتِهِمْ، وَبُعْداً عَنْ تَجَمُّعَاتٍ قَبلِيَّةٍ أَوْ عَصَبِيَّاتٍ لِلْمُدُنِ. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ آخَى بَيْنَ زَيْدٍ وَبَيْنَ أُسَيْدِ بنِ الحُضَيْرِ أَحَدِ سَادَةِ الأَوْسِ.

أُذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْقِتَالِ، وَانْطَلَقَتِ الغَزَوَاتُ وَالسَّرَايَا، وَبَدَأَ الصِّدَامُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ والمُشْرِكِينَ وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ الكُبْرَى فُرْقَاناً بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ فَنَصَرَ اللَّهُ جُنْدَهُ، وَأَذَلَّ أَعْدَاءَهُ، ثُمَّ كَانَتْ أُحُدٌ، والخَنْدَقُ، وَشَهِدَها زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كُلَّهَا، وَكَانَ مِنَ الرُّمَاةِ المَشْهُورِينَ. وَوَلَّاهُ الرَّسُولُ،

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المَدِينَةِ عِنْدَمَا سَارَ إِلَى المُرَيْسِيعِ[1]، كَمَا شَهِدَ الحُدَيْبِيَّةَ وَخيبَرَ. وَأُمِّرَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَلَى سَبْعِ سَرَايا، كَانَ أَوَّلَهَا سَرِيَّةُ «القَرَدَةِ» وَكَانَتْ فِي أَوَّلِ جُمَادَى الآخِرَةِ مِنَ العَامِ الثَالِثِ لِلهِجْرَةِ، قَبْلَ غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا حَذِرَتْ قُرَيْشٌ طَرِيْقَ الشَّامِ. قَالَ صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ: إِنَّ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ قَدْ عَوَّرُوْا عَلَيْنَا مَتْجَرَنَا، فَمَا نَدْرِي كَيْفَ نَصْنَعُ بِأَصْحَابِهِ؛ لَا يَبْرَحُونَ السَّاحِلَ، وَأَهْلُ السَّاحِلِ قَدْ وَادَعَهُمْ وَدَخَلَ عَامَّتُهُمْ مَعَهُ، فَمَا نَدْرِي أَيْنَ نَسْلُكُ، وَإِنْ أَقَمْنَا نَأْكُلُ رُؤُوْسَ أَمْوَالِنَا وَنَحْنُ فِي دَارِنَا هَذِهِ، مَا لَنَا بِهَا نَفَاقٌ[2]، إِنَّمَا نَزَلْنَاهَا عَلَى التِّجَارَةِ، إِلَى الشَّامِ فِي الصَّيْفِ، وَفِي الشَّتَاءِ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ، فَقَالَ الأَسْوَدُ بنُ المُطَّلِبِ: فَنَكِّبْ عَنْ السَّاحِلِ وَخُذْ طَرِيقَ العِرَاقِ.

فَقَالَ صَفْوَانُ: لَسْتُ بِهَا عَارِفاً.

قَالَ أَبُو زَمْعَةَ: فَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى أَخْبَرِ دَلِيلٍ بِهَا يَسْلُكُهَا وَهُوَ مُغْمِضُ العَيْنَيْنِ ـ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ـ.

قَالَ: مَنْ هُوَ؟.

---

(١) المريسيع: ماء لخزاعة.

(٢) نفاق: جمع نفقة.

قَالَ: فُرَاتُ بنُ حَيَّانٍ العُجَلِيُّ، قَدْ دَوَّخَهَا وَسَلَكَهَا.

قَالَ صَفْوَانُ: فَذَلِكَ وَاللَّهِ!.

فَأَرْسَلَ إِلَى فُرَاتٍ فَجَاءَهُ فَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ الشَّامَ وَقَدْ عَوَّرَ عَلَيْنَا مُحَمَّدٌ مَتْجَرَنَا لأَنَّ طَرِيقَ عِيرِنَا عَلَيْهِ، فَأَرَدْتُ طَرِيقَ العِرَاقِ.

قَالَ فُراتٌ: أَنَا أَسْلُكُ بِهَا فِي طَرِيقِ العِرَاقِ، لَيْسَ يَطَؤُهَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - إِنَّمَا هِيَ أَرْضُ نَجدٍ وَفَيَافٍ -.

قَالَ صَفْوَانُ: هَذِهِ حَاجَتِي، وَتَجَهَّزَ.

وَوَصَلَ الخَبَرُ إِلَى المَدِينَةِ عَنْ طَرِيقِ نُعَيْمِ بنِ مَسْعُودٍ الأَشْجَعِيِّ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيداً عَلَى رَأْسِ مَائَةِ رَاكِبٍ، فَاعْتَرَضُوا القَافِلَةَ فِي «القَرَدَةَ»[1]، فَأَصَابُوا العِيرَ، وَأَفْلَتَ أَعْيانُ القَوْمِ، وَأَسَرُوا رَجُلاً أَوْ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا فُرَاتُ بنُ حَيَّانَ العُجَليُّ، وَقَدِمُوا بالعِيرِ وَالأَسْرَى إِلى النَّبِيِّ فَخَمَّسَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الغَنِيمَةَ، وَأَسْلَمَ يَوْمَهَا فُراتُ بنُ حَيَّانَ.

---

(١) القردة: من أرض نجد بين الربذة والغمرة ناحية ذات عرق.

وَكَانَتْ سَرِيَّةُ زَيدٍ الثَّانِيَةُ سَرِيَّةَ الجَمُومْ حَيْثُ سَارَ بِـأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى رَأْسِ سَـرِيَّةٍ إلى الجَمُومِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إلى ذَلِكَ المَحَلِّ وَجَدَ امْرَأَةً مِنْ مُزَيْنَة فَدَلَّتْهُ عَلى مَكانِ القَوْمِ ، فَأَصَابَ إِبِلاً وَشَاءً، وَأَسَرَ جَمَاعَةً مِنَ القَـوْمِ وَمِنْ بَيْنِ الأَسْرَى كـانَ زَوْجُ المَرْأَةِ المُـزَيْنِيَّـةِ، وَلَمّا رَجَعَتِ السَّرِيَّةُ إلى المَدينَةِ وَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الرَّجُلَ لامْرَأَتِهِ، كَمَا وَهَبَها نَفْسَها لأَنَّهَا دَلَّتِ السَّرِيَّةَ عَلَى مَكَانِ القَوْمِ .

وَكَانَتْ سَرِيَّةُ زَيْدٍ الثَّالِثَةُ سَرِيَّةَ العِيصِ[1]، حَيْثُ أَرْسَلَهُ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، فِي السَّنَـةِ السَّـادِسَـةِ لِلْهِجْرَةِ في سَبْعِينَ رَاكِباً عِنْدَمَا بَلَغَهُ أَنَّ عِيْراً لِقُرَيْشٍ أَقْبَلَتْ مِنْ الشَّامِ ، فَاعْتَرَضُوا طَرِيقَهَا، فَغَنِمُوا كَثِيراً، وأَسَرُوا عَدَداً مِنْ رِجَـالِها مِنْهُمْ صِهْـرُ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبُـو العَاصِ بنِ الرَّبِيعِ ، زَوْجُ ابْنَتِهِ زَيْنَبَ، وَدَخَـلَ أَبُو العَـاصِ عَلَى زَوْجَتِهِ زيْنَبَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فِي المَدِينَةِ فَاسْتَجَارَهَا فَأَجَارَتْهُ وَنَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِها: «إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبا العَاصِ» .

---

(١) العيص: بينهـا وبين المدينة أربع ليالٍ ، وبينهـا وبين ذي المروة ليلة واحدة.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّـاسُ هَلْ سَمِعْتُمْ مَا سَمِعَتُ؟».

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ حَتَّى سَمِعْتُ الَّـذِي سَمِعْتُمْ، المُؤْمِنُونَ عَلَى مَنْ سِـوَاهُمْ، يُجِيـرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَقَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَارَتْ».

فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى مَنْزِلِهِ دَخَلَتْ عَلَيْهِ ابْنَتُهُ زَيْنَبُ، فَسَأَلَتْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَى أَبِي العَاصِ مَا أَخِذَ مِنْهُ مِنَ المَالِ، فَفَعَلَ، وَأَمَرَهَا أَلا يَقْرَبَهَا، فَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ مَـا دَامَ مُشْرِكاً. وَرَدَّ النَّاسُ لأَبِي العَاصِ مَـا أَخَذُوا مِنَ العِيرِ، وَذَهَبَ إِلَى مَكَّةَ، فَـأَدَّى لِلنَّاسِ حُقُـوقَهُمْ، ثُمَّ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ، وَهَاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ.

ثُمَّ كَانَتْ سَـرِيَّـةُ «الطَّـرَفِ»[١] حَيْثُ خَـرَجَ فِي خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلاً إِلَى بَنِي ثَعْلَبَةَ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالطَّرَفِ هَرَبَ بَنُو ثَعْلَبَةَ وَأَصَابَ زَيْدٌ نَعماً وشَاءً، وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَهَا قِتَالٌ، وَغَابَتِ

(١) الطرف: مكان يبعد عن المدينة ستة وثلاثين ميلاً.

السَّرِيَّةُ عَنِ المَدينَةِ أَرْبَعَ لَيَالٍ. وَهِيَ السَّرِيَّةُ الرَّابِعَةُ لِزَيْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعِنْدَمَا رَجعَ دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ مِنْ عِنْدِ قَيْصَرَ وَقَدْ أَجازَهُ مَالاً وَكَسَاهُ حَتَّى إذا كَانَ بـ (حِسْمَى) لَقِيَهُ نَاسٌ مِنْ جُذَامٍ فَقَطَعُوا عَلَيْهِ طَرِيقَهُ وَأَخَذُوا مَا مَعَهُ وَتَرَكُوهُ، وَجَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ قُضَاعَةَ فَأَغَاثُوهُ، وَقَاتَلُوا الَّذِينَ قَطَعُوا طَرِيقَهُ وَرَدُّوا إِلَيْهِ مَالَهُ بَعَدَ أَنِ اسْتَرْجَعُوهُ مِنْ جُذَامٍ. وَانْطَلَقَ دِحْيَةُ إلَى المَدِينَةِ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْها أَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَا حَدَثَ لَهُ. وَكَانَ رِفَاعَةُ بنُ زَيْدٍ الجِذَامِيُّ وَافِداً يَوْمَذَاكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَجُلاً إِلَى جُذَامٍ فَأَجَابَتْهُ. وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيْداً عَلَى رَأْسِ خَمسِمائِةِ مُقَاتِلٍ وَمَعَهُ دَلِيلٌ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ فَأَغَارَ عَلَى المُعْتَدِينَ، وَقَتَلَ الَّذِينَ اعْتَدَوْا عَلَى دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ، وَأَخَذَ أَلْفَ بَعِيرٍ، وَخَمْسَةَ آلاَفٍ مِنَ الشِّيَاهِ، وَمِائَةً مِنَ السَّبَايَا. وَلَكِنَّ القَوْمَ أَسْلَمُوا، وَسَارَ رِفَاعَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَلَبَ مِنْهُ رَدَّ مَا أَخَذَ زَيْدٌ، لأَنَّ مَا أُخِذَ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ مُسْلِمِينَ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ إِلَى

زَيْدٍ لِيَرُدَّ مَا أَخَذَ مِنْ جُذَامٍ فَفَعَلَ، وَكَانَ سَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ عَلِيٍّ إِشَارَةً إِلَى زَيْدٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ سَرِيَّةَ زَيْدٍ الخَامِسَةَ.

وَخَرَجَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي تِجَارَةٍ فَلَقِيَهُمْ قَوْمٌ مِنْ فَزَارَةَ دُونَ وَادِي القُرَى، فاعْتَرَضُوا قَافِلَةَ زَيْدٍ وَضَرَبُوهُ وَمَنْ مَعَهُ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ مَاتُوا ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَلَمَّا صَحَا زَيْدٌ تَحَامَلَ عَلَى نَفْسِهِ وَرَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ، وَأَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَعَثَهُ عَلَى رَأْسِ سَرِيَّةٍ، فَأَصَابَ القَوْمَ وَغَنِمَ، وَقُتِلَتْ أُمُّ قِرْفَةَ[1] الَّتِي جَهَّزَتِ القَوْمَ لِقِتَالِ المُسْلِمِينَ، وَكَانَتْ هَذِهِ السَّرِيَّةَ السَّادِسَةَ.

أَمَّا السَّابِعَةُ فَهِيَ غَزْوَةُ مُؤْتَةَ وَهِيَ الَّتِي اسْتُشْهِدَ بِهَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَتَحَدَّثُ عَنْها بَعْدَ قَلِيلٍ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ -.

هَاجَرَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بنِ أَبِي مُعَيْطٍ فَخَطَبَها الزُّبَيْرُ بنُ العوَّامِ، وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، وَعَمْرُو بنُ العَاصِ، وَزَيْدُ بنُ حَارِثَة فَٱسْتَشَارَتْ أَخَاهَا لأُمِّهَا عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ حَيْثُ أَنَّ أُمَّهُمَا أَرْوَى بِنْتُ كَرِيْزٍ الَّتِي أُمُّهَا البَيْضَاءُ أُمُّ

(١) أم قرفة: هي فاطمة بنت ربيعة بن زيد من بني بدر من فزارة.

حَكِيمٍ بِنْتُ عَبْدِالمُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَشَارَ عَلَيْهَا عُثْمَانُ أَنْ تَأْتِيَ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْهُ، فَأَشَارَ عَلَيْهَا بِزَيْدٍ، فَتَزَوَّجَهَا، فَوَلَدَتْ لَهُ زَيْدَ بْنَ زَيْدٍ، وَرُقَيَّةَ، ثُمَّ طَلَّقَهَا.

وَتَزَوَّجَ دُرَّةَ بِنْتَ أَبِي لَهَبٍ، ثُمَّ طَلَّقَهَا.

وَتَزَوَّجَ هِنْدَ بِنْتَ العَوَّامِ أُخْتَ الزُّبَيْرِ.

كَانَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَصِيراً، شَدِيدَ البَيَاضِ، فِي أَنْفِهِ فَطَسٌ، أَمَّا ابنُهُ أُسَامَةُ فَكَانَ أَسْوَدَ.

رَغِبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي إِكْرَامِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَخَطَبَ لَهُ ابنَةَ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ[1] بِنْتَ جَحْشٍ، الفَتَاةَ القُرَشِيَّةَ الَّتِي تَعْتَزُّ بِنَسَبِهَا، وَتَفْتَخِرُ بِجَمَالِهَا، فَوَجَدَتْ فِي نَفْسِهَا شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الخِطْبَةِ، وَأَبْدَتْ ذَلِكَ، وَلَمْ تُخْفِهِ، وَكَذَلِكَ أَهْلُهَا، وَلَكِنْ لا يُمْكِنُ مُخَالَفَةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ مَحَبَّةً لَهُ وَاتِّبَاعاً، وَطَاعَةً وَتَقْدِيراً. وَتَمَّ الزَوَاجُ، وَلَكِنْ لَمْ يَحْدُثِ

(١) زينب: كان اسمها برّة، فسمّاها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، «زينب»، واسم أمّها أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم أي عمّة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

الوِفَاقُ لأَمْرٍ أَرَادَهُ اللَّهُ، إِذْ كَانَتْ تُبْدِي لَهُ أَنَفَةً، وتُظْهِرُ تَعَالِياً بِقُرَشِيَّتِهَا، وَوَجَدَ زَيْدٌ فِي نَفْسِهِ شَيْئاً، وَرَغِبَ فِي طَلاَقِهَا، وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُهُ حَتَّى يَسْتَشِيرَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي زَوَّجَهُ وَأَكْرَمَهُ، فَطَلَبَ مِنْهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الصَّبْرَ والمُحَافَظَةَ عَلَى زَوْجِهِ المُؤْمِنَةِ. وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى رَسُولِهِ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةُ والسَّلاَمِ، أَنَّ زَيْداً سَيُطَلِّقُ زَوْجَهُ زَيْنَبَ، وَسَيَتَزَوَّجُهَا الرَّسُولُ الكَرِيمُ، لِيُبْطِلَ التَّبَنِّي، وَيُلْغِي تَحْرِيمَ الزَّوَاجِ مِنْ زَوْجَةِ الَّذِي تَبَنَّاهُ، فَأَخْفَى ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ مَا سَيَقُولُونَ «تَزَوَّجَ زَوْجَةَ ابْنِهِ» أَوْ «أَحَبَّهَا لِجَمَالِهَا» أَوْ... وَلَكِنَّ اللَّهَ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يُظْهِرَ ذَلِكَ... وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يُمْكِنُهُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ حَتَّى يَنْزِلَ بِذَلِكَ قُرْآنٌ أَوْ أَمْرٌ مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَعَادَتِ النَّفْرَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ زَيْدٍ وَزَيْنَبَ، وَجَاءَ زَيْدٌ إِلَى الرَّسُولِ الكَرِيمِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَشْكُو زَيْنَبَ، فَقَالَ لَهُ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ اللَّهَ»، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الأَجَلُ المُعَيَّنُ، ٱسْتَحَالَتِ الحَيَاةُ الزَّوْجِيَّةُ، وَكَانَ لَا بُدَّ مِنَ الفِرَاقِ، وَنَزَلَ قَوْلُ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي

نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوا مِنْهُنَّ وَطَراً، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾[1] وَطَلَّقَ زَيْدٌ زَوْجَهُ زَيْنَبَ، وَانْقَضَتْ عِدَّتُها، وَتَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ زَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تَفْخَرُ عَلَى بَقِيَّةِ أُمَّهاتِ الْمُؤْمِنِينَ فَتَقُولُ: كُلُّكُنَّ زَوَّجَكُنَّ أَهْلُكُنَّ أَمَّا أَنَا فَقَدْ زَوَّجَنِي اللَّهُ.

وَٱتَّسَعَ نِطَاقُ الدَوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ، وَكَانَ لاَ بُدَّ لَهَا مِنْ أَنْ تَنْطَلِقَ إِلَى الدُّوَلِ الأُخْرَى سَوَاءٌ أَكَانَتْ دَاخِلَ الجَزِيرَةِ أَمْ خَارِجَهَا. فَالرَّسُولُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمُسْلِمُونَ مِنْ بَعْدِهِ مُكَلَّفُونَ بِإِبْلاَغِ الدَّعْوَةِ إِلَى البَشَرِ جَمِيعَاً. أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الرُّسُلَ إِلَى المُلُوكِ وَالحُكَّامِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَحْسَنَ وِفَادَةَ هَؤُلاَءِ الرُّسُلِ وَرَدَّ بِإِحْسَانٍ وَأَهْدَى كالمُقَوْقِسَ حَاكِمِ مِصْرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْلَظَ القَوْلَ، وَمَزَّقَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَزَّقَ اللَّهُ دَوْلَتَهُ، وَهُوَ كِسْرَى أَمْبَرَاطُورُ الفُرْسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ وَقَبِلَ الدَّعْوَةَ إِذْ أَسْلَمَ مَلِكُ البَحْرَينِ المُنْذِرُ بنُ سَاوِي، وَمَلِكُ

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

الحَبَشَةِ النَّجَاشِيُّ، وَكَانَ حَديثَ العَهْدِ بِالمُلْكِ حَيْثُ كَانَ المَلِكُ الذِي أَسْلَمَ عَلَى يَدِ جَعْفَرِ بنِ أَبِي طَالِبٍ قَدْ تُوُفِّيَ، كَمَا أَسْلَمَ حَاكِمُ اليَمَنِ وَأَخَوَاهُ، وَمَلِكَا عُمَانَ ابْنَا جُلُنْدَي. أَمَّا هِرَقْلُ فَقَدْ خَافَ عَلَى مُلْكِهِ وَتَمَسَّكَ فِيهِ، وَأَطَاعَ البَطَارِقَةَ، وَقَرَّرَ مُقَاوَمَةَ الدَّعْوَةِ وَقِتَالِ أَهْلِهَا، وَهَدَّدَ مَلِكُ الغَسَاسِنَةِ الحَارِثُ بنُ أَبِي شِمْرٍ بِغَزْوِ المَدِينَةِ، أَمَّا مَلِكُ اليَمَامَةِ هَوْذَةُ بنُ عَلِيٍّ الحَنَفِيُّ فَقَدِ اشْتَرَطَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَجْعَلَ لَهُ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ.

وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الحارِثَ بنَ عُمَيْرٍ الأَزْدِيَّ إِلَى مَلِكَ الغَسَاسِنَةِ فَالْتَقَى بِمُؤتَةَ بِعَامِلِ مَلِكِ الغَسَاسِنَةِ عَلَى جَنُوبِي بِلادِ الشَّامِ وَهُوَ شُرَحْبِيلُ بنُ عَمْرٍو الغَسَّانِيُّ، فَسَأَلَ شُرَحْبِيلُ الحَارِثَ عَنْ وِجْهَتِهِ فَأَخْبَرَهُ بِحَمْلِ رِسَالَةٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى مَلِكِ الغَسَاسِنَةِ فَقَتَلَ شُرَحْبِيلُ الحَارِثَ، فَكَانَ عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يُؤَدِّبُوا هَذَا الوَالِيَ الطَّاغِيَةَ لِحِمَايَةِ الدَّعْوَةِ وَرِجَالِهَا، وَلِمَنْعِ الظُّلْمِ، وَالوُقُوفِ فِي وَجْهِ الطُّغْيَانِ.

جَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَيْشاً قِوَامُهُ ثَلاثَةُ آلافِ مُقَاتِلٍ، وَأَعْطَى قِيَادَتَهُ إِلَى زَيْدِ بن حَارِثَةَ، وَقَالَ:

«إِنْ أُصِيبَ فَالأَمِيرُ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنْ أُصِيبَ فَالأَمِيرُ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ وَإِذَا حَدَثَ فَالرَّأْيُ لِلمُسْلِمِينَ يَخْتَارُونَ مَنْ يَشَاؤُونَ. وَأَحسَّ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ مُوَدِّعٌ لِهَذِه الحَيَاةِ الدُّنْيَا إِذْ لَمْ يَسْبِقْ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ أَمَّر ثَلاثَةَ قَادَةٍ، وَتَحرَّكَ الْجَيْشُ باتِّجَاهِ الشَّمَالِ.

وَصَلَ الخَبَرُ إِلَى شُرَحْبِيل بن عَمْرٍو الغَسَّانِيِّ عَامِلِ الرُّومِ عَلى بِلَادِ الشَّامِ الجَنُوبِيَّةِ، فَبَعَثَ أَخاهُ (سُدُوْسَ) طَلِيعَةً لَهُ مَعَ خَمْسِينَ مُقَاتِلٍ، غَيْرَ أَنَّ (سُدُوسَ) وَقَعَ أَسِيراً بِيَدِ المُسْلِمِينَ فِي شَمَالِ وَادِي القُرَى وَقُتِلَ.

وَجَهَّزَ هِرَقْلُ جَيْشاً قِوَامُهُ مِائَةُ أَلْفٍ وَعَهِدَ بِقِيَادَتِهِ إِلَى أَخِيهِ تِيُودُورَ، كَمَا اسْتَعَدَّتِ العَرَبُ المُتَنَصِّرَةَ وَجَمَّعَت مِائَةَ أَلْفِ مُقَاتِلٍ أَيْضاً. وَوَصَلَتْ أَخْبَارُ هَذَا الحَشْدِ النَّصْرَانِيِّ إِلَى الجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ، فَبَدَأَ أُمَرَاؤُهُ يَتَدَاوَلُونَ الرَّأيَ فِي العَمَلِ أَمَامَ هَذِهِ القُوَّةِ الرُّومِيَّةِ الطَّاغِيَةِ. فَرَأَى بَعْضُهُمْ أَنْ يُخْبِرُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْ يَنْتَظِرُوا حَتَّى تَأْتِي أَوَامِرُهُ، وَرَأَى بَعْضُهُمْ المُتَابَعَةَ وَالاشْتِبَاكَ مَعَ الرُّومِ مُسْتَعِينِينَ بِاللَّهِ فَقَدْ خَرَجُوا لِهَذَا، وَأَرْسَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِهَذَا، وَكَانَ مِنْ هَذَا الرَّأْيِ

عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الأَمِيرُ الثَّالِثُ لِلْجَيْشِ، قَالَ لَهُمْ: إِنَّ الذِي تَكْرَهُونَ لَلَّذِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ، وَمَا نُقَاتِلُ النَّاسَ بِعَدَدٍ ولَا قُوَّةٍ وَلا كَثْرَةٍ، مَا نُقَاتِلُهُمْ إلا بهذا الدِّينَ الْذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتَنَا يَوْمَ بَدرٍ مَا مَعَنَا إلَّا فَرَسَانِ، وَيَوْمَ أُحُدٍ فَرَسٌ وَاحِدٌ، فَانْطَلِقُوا بِنَا فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ، إِمَا ظُهُورٌ عَلَيْهِمْ فَذَلِكَ مَا وَعَدَنَا بِهِ نَبِيُّنَا وَلَيْسَ لِوَعْدِهِ خُلْفٌ، وَإِمَّا الشَّهَادَةُ فَنَلْحَقُ بِالإِخْوَانِ نُرَافِقُهُمْ بالجِنَانِ. فَدَبَّتِ الحَمَاسَةُ بِالنُّفُوسِ، وَأَمَرَ قَائِدُ الجَيْشِ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جُنْدَهُ بِالتَّحَرُّكِ.

كَانَ جَيْشُ الرُّومِ وَعُمَلاؤُهُ يَتَأَلَّفُ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ بِقِيَادَةِ تُيُودُورِ أَخِي هِرَقْلَ، وَمِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الغَسَاسِنَةِ وَالعَرَبَةِ المُتَنَصِّرَةِ بِقِيَادَةِ مَالِكِ بنِ رَافِلَةَ البَلَوِيِّ، وَمَعَ هَذَا الجَيْشِ، الْعَرَمْرَمِ عَشَرَاتُ الأُلُوفِ مِنَ الخَيْلِ تَزِيدُ عَلَى خَمْسِينَ أَلْفاً. أَمَّا الجَيْشُ الإِسْلَامِيُّ فَلَمْ يَكُنْ لِيَزِيدَ عَلَى ثَلَاثَةِ آلافٍ.

وَصَلَ الجَيْشُ الإِسْلَامِيُّ إِلَى مُؤْتَةَ فَتَحصَّنَ بِهَا خَوْفاً مِنَ التَّطْوِيقِ، أَمَّا الرُّومُ فَقَدْ تَوَقَّعُوا أَنْ يُبِيدُوا الجَيْشَ الإِسْلَامِيَّ إِبَادَةً تَامَّةً خِلَالَ سَاعَةٍ أَوْ سَاعَاتٍ قَلائِلَ، أَوْ يَضْطَرُّوهُ إِلَى الاسْتِسْلَامِ، وَلَكِنَّهُمْ رَأَوا غَيْرَ مَا تَوَقَّعُوا فَقَدْ وَجَدُوا أُنَاساً

يَنْدَفِعُونَ إِلَى القِتَالِ دُونَ مُبالاَةٍ، وَكَأَنَّهُ لاَ شَيْءَ أَمَامَهُمْ، أَوْ كَأَنَّهُمْ يَحْصِدُون حُقُولاً مِنَ القَمْحِ تَمَايَلَتْ سَنَابِلُهَا، وَقَدِ ٱسْتَمَرَّتِ المَعْرَكَةُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ، وَجَدَ الرُّومُ خِلَالَ الأَيَّامِ السِّتَّةِ الأَهْوَالَ كُلَّهَا، وَعَانُوا الشَّدَائِدَ، وَشَدِهُوا مِنَ الشَّجَاعَةِ البَالِغَةِ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَهُمْ، وَكُلَّمَا حَاوَلُوا اقْتِحَامَ مَوَاقِعِ المُسْلِمِينَ بَاؤُوا بِالفَشَلِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَتِهِمْ الكَبِيرَةِ، وَرَجَعُوا إِلَى أَمَاكِنِهِمْ مُخَلِّفِينَ عَدَداً كَبِيراً مِنَ القَتْلَى في ساحَةِ المَعْرَكَةِ، وَظَلَّ المُسْلِمُونَ في صُمُودٍ تَامٍّ.

وَفِي اليَوْمِ السَّادِسِ استَشْهَدَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ بَعْدَ أَنْ دَخَلَ بَيْنَ صُفُوفِ الأَعْدَاءِ وَقَتَلَ مِنْهُمْ الكَثِيرَ كَعَادَتِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ المَعْرَكَةِ، وَفِي هَذِهِ المَرَّةِ تَنَاوَشَتْهُ رِمَاحُ الأَعْـدَاءِ فَخَرَّ صَرِيعاً، وَلَمْ يَسْقُطِ اللِّوَاءُ مِنْ يَدِهِ بَلْ تَنَاوَلَهُ القَائِدُ الثَّانِي جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ وَالَّذِي كَانَ يُقَاتِلُ بِجَانِبِ زَيْدٍ طِيلَةَ أَيَّامِ المَعْرَكَةِ السَّابِقَةِ، فَقَاتَلَ قِتَالاً شَدِيداً شَدِهَ لَهُ الرُّومُ، فَكَانَ يَدْفَعُ جَحَافِلَ الأَعْدَاءِ أَمَامَهُ وَتَسِيرُ كَتَائِبُ المُسْلِمِينَ خَلْفَهُ، ثُمَّ أَقْحَمَ فَرَسُهُ وَسَطَ جُمُوعِ الخُصُومِ ، وَلِكَثْرَةِ الزِّحَامِ وَشِدَّةِ اللالْتِحَامِ عَجَزَتْ فَرَسُهُ مَعَ قُوَّتِهَا عَنِ الحَرَكَةِ، فَأَلْقَى نَفْسَهُ عَنْهَا وَعَقَرَهَا، وَقَاتَلَ مُتَرَجِّلاً قِتَالاً لَمْ يَكَدْ يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَيْهِ،

وَأَحَاطَ الرُّومُ بِهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَهُوَ يُشَتِّتُ شَمْلَهُمْ حَيْثُ ٱتَجَهَ حَتَّى أُنهِكَ، وَقُطِعَتْ يَدُهُ اليُمْنَى الَّتِي تَحْمِلُ الرَّايَةَ فَأَخَذَهَا بِاليُسْرَى فَقُطِعَتْ، فَاحْتَضَنَهَا بِعَضُدِهِ خَوْفاً مِنْ أَنْ تَقَعَ، لأَنَّ وُقُوعَ الرَّايَةِ دَلِيلُ هَزِيمَةِ الجَيْشِ، وَبِوُقُوعِهَا تَنْهَارُ مَعْنَوِيَّاتُ المُقَاتِلِينَ، ثُمَّ أَثْخَنَتْهُ الجِرَاحُ فَوقَعَ شَهِيداً، وبِهِ أَكْثَرُ مِنْ تِسْعِينَ ضَرْبَةً، مِنْهَا ضَرْبَةُ رُمْحٍ قَدْ أَنْفَذَتْهُ، وَضَرْبَةُ سَيْفٍ شَطَرَتْهُ.

ثُمَّ تَنَاوَلَ الرَّايَةَ عَبدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ فَاسْتَبْسَلَ في القِتَالِ حتَّى لَقِيَ مَصْرَعَهُ كَسَابِقَيْهِ، وَسَقَطَ لِوَاءُ المُسْلِمينَ فِي الأَرْضِ، فَضَعُفَتِ المَعنَوِيَّاتُ، وَبَدَأَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ بِالتَّرَاجُعِ، إلَّا أَنَّ قَطْبَةَ بنَ عَامِرٍ الأَنْصَارِيَّ قَدْ رَفَعَ اللِّوَاءَ، وَأَخَذَهُ مِنْهُ ثَابِتُ بنُ أَقْرَمَ، وَبَدَأَ يَصِيحُ فِي النَّاس، فَثَابُوا إِلَى رُشْدِهِمْ، وَطَلَبَ مِنَ المُسْلِمِينَ أَنْ يَعْمَلُوا على ٱخْتِيَارِ قَائِدٍ لَهُمْ يَرْفَعُ لَهُمُ اللِّوَاءَ، فَاخْتَارُوهُ، فَأَبَى، وَلَكِنَّهُ أَخَذَهُ فَسَلَّمَهُ إِلَى خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ، فَوَافَقَ وُجُوهُ الجَيْشِ، وَكَانَ اليَوْمُ السَّادِسُ قَدِ انْتَهَى، وَأَرْخَى الظَّلَامُ سُدُولَهُ، وَمَنَعَ اللَّيْلُ بَعْضَ الفَرِيْقَيْنِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَثْنَاءَ اللَّيْلِ نَظَّمَ خَالِدٌ الجَيْشَ مِنْ جَدِيدٍ، وَفَكَّرَ فِي إِنْقَاذِ المَوْقِفِ، فَاخْتَارَ كَتَائِبَ مِنَ الفُرْسَانِ،

وَطَلَبَ مِنْهَا المُرَابَطَةَ خَارِجَ مُؤْتَةَ، فإذَا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ وَالْتَحَمَ النَّاسُ، جَاءَ بَعْضُهَا إِثْرَ بَعْضٍ مُرْتَفِعَةً أَصْوَاتُهَا بِالتَّكْبِيرِ، وَعَدْوُ الخَيْلِ يُثِيرُ النَقْعَ، ثُمَّ تَشْتَرِكُ في المَعْرَكَةِ، كَمَا أَبْدَلَ مَواقِعَ فِرَقِ الجَيْشِ، إِذْ جَعَلَ المَيْمَنَةَ مَكَانَ المَيْسَرَةِ، والسَّاقَةَ بَدَلَ المُقَدِّمَةِ... وَمَعَ ٱنبِلَاجِ الفَجْرِ عَادَ القِتَالُ، وَشَنَّ خَالِدُ هُجُوماً مُعَاكِساً زَلْزَلَ فِيه الرُّومَ، فَوَجَدَ المُقَاتِلَةُ الرُّنمُ أَمَامَهُمْ غَيْرَ الَّذِينَ عَرَفُوهُمْ فَظَنُّوا أَنَّ مَدَداً قَدْ جَاءَ لِلْمُسْلِمِينَ فَخَافُوا مَغَبَّةَ الأَمْرِ، ثُمَّ تَتَالَتْ كَتَائِبُ فُرْسَانِ المُسْلِمِينَ تَصِلُ إِلَى المَعْرَكَةِ وَكَأَنَّها فِرَقٌ جَدِيدَةٌ وَكَبِيرَةٌ حَسْبَمَا يَظْهَرُ مِنَ الغُبَارِ المُرْتَفِعِ وَالأَصْوَاتِ المُتَعَالِيَةِ، وَزَادَ خَوْفُ الرُّومِ ، وَأَيْقَنُوا أَنَّ المَدَدَ قَدْ وَصَلَ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ لا قِبَلَ لَهُمْ بِقُوَّاتٍ إِضَافِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، وَقَدْ أَنْهَكَتْهُمْ قُوَّةٌ صَغِيرَةٌ فَكَيْفَ لَهُمْ بِجُمُوعٍ كَثِيرَةٍ لَمْ تَعْرِفِ التَّعَبَ بَعْدُ.

وَصَبَرَ المُسْلِمُونَ يَوْمَهُمْ السَّابِعَ بِبَسَالَةٍ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ مِنَ التَّعَبِ، وَعِنْدَمَا جَاءَ المَسَاءُ وَفَصَلَ الظَّلَامُ بَيْنَ الجَيْشَيْنِ انْسَحَبَ خَالِدُ بِالجَيْشِ عَلَى شَكْلِ كَتَائِبَ يَحْمِي بَعْضُهَا أَثْنَاءَ التَّرَاجُعِ بَعْضَهَا الآخَرَ، خَوْفاً مِنْ مُلاحَقَةِ الرُّومِ وَمُطَارَدَتِهِمْ، وَعِنْدَهُمُ الإِمكاناتُ الضَّخْمَةُ، فَعِنْدَهُمْ مِن سِلَاحِ المُطَارَدَةِ

خَمْسُـونَ أَلْفَـاً مِنَ الفُـرْسَـانِ إِلَّا أَنَّ الـرُّومَ أَيْقَنُـوا أَنَّ هَـذَا الانْسِحَابَ إِنَّمَا هُوَ مَكِيدَةٌ حَـرْبِيَّةٌ بَعْـدَ أَنْ جَاءَتْهُمُ القُـوَّاتُ الجَـدِيدَةُ، وَأَنَّهُمْ يَنْصُبُـونَ الكَمَـائِنَ لِيُـوقِعُـوا الـرُّومَ فِيهَـا، فَأَحْجَمُوا عنِ المُطَارَدَةِ، وَنَجَا الجَيْشُ الإِسْلَامِيُّ الصَّغِيرُ بِهَذِهِ الخُطَّةِ.

وَنَعَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيْداً وَجَعْفراً وَعَبْدَاللَّهِ بنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الخَبَرُ، فَقَالَ: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْـدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، حَتَّى أَخذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ ـ يَعْنِي خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ ـ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».